مع غزّة

كريم جمال

خلاصنا جميعاً في الخلاص من الصهيونية

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة، وكيف أثّر في إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «كيف للإنسان العربي أن يُواجه ذاته بعد أن صمتَ وتخاذل عمداً أو قهراً؟»، يقول الكاتب المصري لـ«العربي الجديد»

كريم جمال

الإسكندرية ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادة على غزّة؟

الهواجس كثيرة، بعضها يخصّ قطاع غزّة وأهله، وبعضها يخصّني أنا شخصياً، سؤال متى تنتهي الحرب على غزّة وتمرّ تلك اللحظة الشاحبة؟ يُراودني في كلّ دقيقة تقريباً، أفكّر دائماً في المصير والمستقبل القريب؛ كيف سيعيش أهل غزّة وسط كلّ ذلك الدمار وزُكام الأيام؟ كيف يُمكن أن تنبت زهرة الحياة مرّة أخرى، بعد أن دهست وحشيّة الاحتلال كلّ شيء وأي شيء في طريقها؟ الهواجس كثيرة، ولكنّي أعتقد أنّ مَعضلة الهاجس الشخصي أعمق، فالحرب لا بدّ أنّها ستتوقّف في يوم، وستُعاد غزّة كما كانت وربّما أجمل، وسلاسل الشهداء قادمة لتقطف البرتقال وتحمل البنادق، لكن هاجسي الأكثر قلقاً كيف سنعيش نحن بعد تلك المأساة؟ كيف للإنسان العربي أن يُواجه ذاته بعد أن صمتَ وتخاذل عمداً أو قهراً؟ وأخيراً أين يُمكن لنا أن نقف ونرفع رؤوسنا للسماء؟ في الشرق الذي أصبح ساحة للقهر والموت وحقلاً لتجارب أحدث مُنجزات العلم الإنساني؟ أم في الغرب الذي سقط القناع عن قناعه، وأظهرت الحرب بقايا وجهه الكولونيالي، وازدواجية قيمه الإنسانية والحقوقية.

■ كيف أثّر العدوان في حياتك اليومية والإبداعية؟

تغيّر كلّ شيء تقريباً؛ اختصرت الحياة في سيرة غزّة وأهلها، في كلّ صباح يتكرّر السؤال عن جديد الخبر ومدى دلالته في تلك المعركة العسكرية والسياسية، الأطمئنان على الأصدقاء دائم ما دامت الحرب ماثلة في المشهد، في كلّ لحظة أسأل عن صديقٍ أهيئ نفسي لتقبّل مشاعر فقده أو موت أهله في مجزرة بشعة ودامية، كلّ طُرق أيامي صارت تؤدّي إلى غزّة وحدها ولا شيء غيرها، منذ اليوم الأول للحرب فقدت حياتي الشخصية معانيها ومُتعها القليلة، كيف يُمكن أن تطيب القراءة والكتابة الإبداعية وجريمة محو لذاكرتنا تجري على مرأى من الكون وسَمْعه؟ منذ نهاية أكتوبر/ تشرين الأول 2023 وأنا أسأل نفسي عن كيفية ممارسة الكتابة وجدواها في جوّ تسكنه رائحة الموت وغبار القصف؟ أعلم جيّداً أنّ الكتابة تنحدر أيضاً من الألَم، لكن ربّما أدركتُ مؤخّراً حقيقة مقولة أن لا رؤية لخائف، ولا يُمكن بحال من الأحوال أن تنبت شجرة الكتابة وتزدهر أوراقها في أرضٍ تُسقى في كلّ يوم بمياه الخوف وتُرقّب اللحظة التالية، الصمتُ هنا بلاغة، وزادٌ كبير لاستعادة البوصلة الإبداعية وحقيقة الهدف والذات.

■ إلى أي درجة تشعر بأن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

الإبداع مقاومة، هكذا كانت رؤيتي الواسعة للفنّ والأدب منذ اللحظة الأولى لتعلّقي بعوالم الجمال، ولكن السؤال الذي يجب أن يُطرح اليوم على كلّ مُقاوم بقلمه كيف يُمكن للمُبدع أن يُسخّر فنّه في خدمة قضية واسعة كالقضية الفلسطينية؟ المُبدع العربي اليوم في ورطة كبيرة ومُفترق طُرق قاس، إننا نُحاول أن نكون على قدر الحدث، لكنّ الحقيقة أننا صغار جدّاً بجوار ما يفعله أهل غزّة، كلّ الكتب والأغاني واللوحات الفنّية، كلّ الصُّور الجمالية في عالَم المثقّف العربي تبدو اليوم قزمة بجوار سعي الإنسان الغزّي لإيجاد رغيف خبز أو رشفة ماء، قدرة أهل القطاع على إيجاد الأمل والصبر على ما عاشوه على مدار نصف عام ربما تكون محطّة جديدة في طريق المقاومة الإبداعية، وأنا على يقينٍ بعد أن تضع الحرب أوزارها ستعيد غزّة تشكيل عالم جديد للثقافة العربية المُشتبكة مع القضية الفلسطينية، وستخلق غزّة قريباً ذاكرة مزدحمة بالإبداع العربي، لكنّها ذاكرة تتحرّك نحو التحرّر الفعلي بشكل واقعي لا مجرّد شعارات فارغة.

■ لو قيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

في ظنّي أنّ كلّ مجالات الحياة البشرية تصبو إلى شرط الإبداع، ولا شيء يُمكن أن يُقابل الفنّ في قدسيّته وبقائه وخلوده، الفنّ قادرٌ أن يكون بندقيّة ومرثية ونَخْب نصر، وفي هذا العالَم الجديد الذي تُعيد غزّة تشكيله، سيكون للكلمة الإبداعية ألف وجه وألف أثر، العالَم الحرّ أعاد اكتشاف نفسه واستيعاب قيمه، والأجيال الجديدة في العالَم الغربي أدركت أنّ السياسة الغربية تقف على الجانب الخطأ من التاريخ ومن حقوق الإنسان، وهو ما يجب على المبدع العربي استغلاله، وتحويله إلى وقود يشعل القضية ويحقّق هدفها النهائي، فالحروب العسكرية لن تحسم المعركة، والسياسة فشلت في وضع حدّ للمهزلة، ولم يبق إلّا الفنّ وسيلة وطريقاً أمامنا.

■ ما التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالَم؟

عربياً أن يُدرك العرب قوّتهم الحقيقية الكامنة في وجود ما هو متجانس بين أرواح هذه الأمّة، فالحلم قديم والأمل متجدّد، وربما تمنحنا الكارثة بارقة لإعادة التأكيد على أنّ مصيرنا واحد، ونقطتي البداية والنهاية مشتركة، وغربياً أن يُدرك الغرب أن الإنسان العربي يستحقّ الحياة والحرّية، نحن لسنا كمّاً مُهملاً في مشرق الكون، ولا أنصاف بشر أو «حيوانات» كما تشدّق وزير الحرب الصهيوني، وأكّدت الدول الغربية الداعمة للاحتلال بشاعة تصريحه قولاً وفعلاً.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

فلسطين مستودع للمقاومة، وفي كلّ عصر هناك أبطال ومُبدعون حملوا القضيّة في حبر الأقلام ورصاص البنادق، فلسطين تنمو وتفيض كلّ يوم بمُبدع ومُقاوم رغم كلّ المجازر، لذا سأحاول الإصغاء تُمطر في عقلي الآن مئات الأسماء، لكن ما زالت المرأة الفلسطينية المُقاومة البطلة تأسرني، ليلى خالد في صورتها الهادئة المطبوعة في أذهاننا جميعاً، وهي تحمل البندقية وتردي الكوفيّة وترنو ساهمة، تجعلني أسأل نفسي كيف لتلك الفتاة الخَجلة أن تحمل شجاعة النسور، وتحطم نظريات العرب القديمة عن «الرجولة» والسيف، أتمنّى أن يُتيح لي القدر شرف لقائها في يوم لسؤالها عن رؤيتها للمعركة، وكيف تفاعلت مع عالم ما بعد 7 أكتوبر؟ وأيضاً سؤالها عن تجربتها الإنسانية الكبيرة وسط جيل مُقاوم عاضرته وعاشَت معه تفاصيل النَّبل والبطولة.

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

كلّ الكلمات هنا ضائعة، ولكن لا عزاء لهم ولنا إلّا في قول: صبراً أهل غزة فإنّ موعدكم باحات الأقصى، وفضاء الزيتون في جنين والخليل والأغوار، وما النصر إلّا صبر ساعة.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

خلاصنا جميعاً في الخلاص من الصهيونية فهي أم الشرور في محيطنا العربي.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان: ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

الحقّ نافذة يا دارين، نافذة للرؤية والسمع، وسنرى منها قريباً مُروجنا الخضراء وهي حرّة، ونسمع منها وقْع خطوات عودة العائدين.

> المُبدع العربي اليوم في ورطة كبيرة ومُفترق طُرق قاسٍ

> تمنحنا الكارثة بارقة لإعادة التأكيد أنّ مصيرنا واحد

بطاقة

كاتب وباحث موسيقيّ، من مواليد الإسكندرية عام 1992. حاصل على دبلوم الدراسات العليا في العلوم السياسية. نشر العديد من المقالات والأبحاث وصدر له: «أم كلثوم وسنوات الجهود الحربي» (2023)، الحائز على جائزة الدولة التشجيعية في مجال العلوم الاجتماعية، كما شارك في كتابَي «وطن اسمه فيروز» (2023)، و«ذاكرة أكتوبر: تجليّات الحرب في الثقافة المصرية» (2024) مع مجموعة من الباحثين المصريّين.

قراءة

سيرة امّحاء تُذكّر بالإبادة في فلسطين

حكاية واقعيَّة عن عالَم يُسرق

تقترب رواية «شُرطة الذاكرة» لليابانية يوكو أوغاوا، بصورة لا نستطيع تجاوزها، من حكاية فلسطين التي يرويها أبطالٌ واقعيون يُقاومون الاختفاءات

سومر شحادة

سيرة امّحاء، موضوع رواية «شرطة الذّاكرة»، للروائية اليابانية يوكو أوغاوا (1962). وأوسع من ذلك، وخارج الكتابة؛ فإنّ المرء يُلاحظ سيرة الاختفاء هذه في حياته، وفي العالَم من حوله، اختفاءُ الموجودات، واختفاءُ المهن، واختفاءُ البشر هو ديدن الأيام. لكن في الرواية، يظهر الاختفاء أمراً من سلطة أعلى. ليست سلطة الزمن بالمعنى الذي يشعر به البشر في حيواتهم، وإنّما هي سلطة تعطي الأوامر لتسقط موجوداتٍ من التداول. وعبر هذا الإقحام لسلطة البشر في شؤون الزمن، وبامتلاك قدرة هي مُلك الزمن أساساً؛ يصبحُ هذا الموضوع روائيّاً ديستوبيّاً. ولو أنّه في الحقيقة هو عالمنا نفسه، وتجربة عيشنا.

الرواية إخراجٌ جديدٌ للحياة، تدخُّلٌ في شكل الحياة. والفنّ بالصورة التي يظهر بها في الرواية اقتراعٌ على العالَم، لتفسير قسوته. يذهب القارئ إلى هذا الاعتقاد، عندما يعرف أنّ بطلتها تعمل روائية، وتكتبُ رواية عن امرأة بدورها تعيش في ظلّ سلطة رجل ما. الشخصية الرئيسية في «شرطة الذاكرة» وتلك التي تكتبها في رواية داخل الرواية؛ ثُعانيان من سلطة أعلى. النصّ وما يحتويه من نصٍّ آخر؛ حلقتان إحداهما تنطوي على أخرى، إحداهما أوسع من أخرى. السلطة تأمرُ الناس بأن يفقدوا ذاكرتهم، والشخصية التي تعمل روائية، تدفع بالشخصية التي تكتبها لأن تتذكّر في سلسلة قهرية تُعاند بعضها، قبل أن تأتي الطبيعة بهيئة زلزال؛ وتعيد ترتيب الحكاية. لكن نحن نعرف منذ البداية أننا نقرأ عن جزيرة تختفي فيها الأشياء، وتُشرف شرطة الذاكرة على سَير الاختفاءات، فتُلاحق مَن يحتفظ بأشياء اختفت. حتّى إنّ والدة الشخصية الرئيسية في الرواية، تُعتقل، وتُختفى. ونعرف في مراحل متقدّمة من النصّ أنّها كانت نخّاتة، وأنّها احتفظت داخل التماثيل التي أنجزتها بالكثير من الموجودات التي اختفت. النحت لديها، كما الكتابة لدى ابنتها، أداةٌ لفهم سلطة أعلى ومعاندتها. لكنّ الاختفاء يشمل كلّ مناحي الحياة؛ بدءاً بالروائح، حتّى الطيور والسفن، وانتهاءً بأعضاء الجسد. مع ذلك، فالاختفاء الذي يؤرّق الشخصية، ويشكّل عقدة الاختفاءات كلها في النصّ، هو اختفاءُ الروايات. التلخيص السابق للرواية، وصولاً إلى حدث اختفاء الروايات الذي تعقبه حوادث كثيرة تعرض بمجملها محو العالم القديم بلا رجعة، واختفاءه من غير أن يترك أثراً؛ مقدّمة طويلة للقول بالفراغ الذي يتركه غياب الكتابة، وهي هُنا أداةٌ يمتلكها المسحوق في صراعه مع سلطة تقهره. والرواية الصادرة عن «دار الآداب» بترجمة محمد آيت حنّا (2021) دليلٌ للكُتّاب على المادة الخالدة التي يمتلكونها، على المادة التي بمقدورهم أن يُعيدوا باستخدامها صياغة العالَم من حولهم. خاصة عند النظر إليه، نراه عالماً تختفي فيه يوماً بعد آخر، قيمةٌ إنسانية، لصالح قيم تُغرّب البشر أكثر عن طبيعتهم، إمّا بالاستهلاك المُفرط أو القتل المُفرط.

> رمزيّة الاختفاء تُشير إلى حال القيم الإنسانية في عالمنا

بعيداً عن الرواية، وفي صلب موضوعها في الآن نفسه؛ رأينا في المذبحة المستمرّة بغزة؛ كيف تختفي الموجودات بالتدريج، يختفي الطعام، يختفي الدواء، تختفي البيوت، ومن ثم يختفي البشر أنفسهم. وحتى مَن كان يُشارف على الموت، أوصى بأن تستمرّ الرواية بعد موته، وأن يحافظ من بقي حيّاً على حكاية من مات. والرواية تقترب بصورة لا يستطيع المرء تجاوزها من حكاية فلسطين التي يرويها أبطالٌ واقعيون يُقاومون الاختفاءات التي يفرضها عليهم الصهاينة، جنداً ومستوطنين بكلابهم البوليسيّة وطائراتهم. وحكاية فلسطين ديستوبيا واقعيّة لعالَم يُسرق، لعالَم يُستبدل بإشراف شرطة دوليّة. لكن ما جعل فوز السلطة الأعلى في الرواية فوزاً مُبرماً، هو الوعي الذي امتلكته تلك السلطة الغامضة بضرورة حرمان البشر من أصواتهم، من كلماتهم، ووعي السلطة الأعلى بضرورة الاستهداف المباشر للفنون. لأنّ الفنّ خزّانُ الذاكرة، وهو يقهرُ الاختفاءات، ويقهر السلطات، ويقهر الموت نفسه.

(روائي من سورية)

يوكو اوغاوا، باريس، 2013 (Getty)

إطلالة

في دوائر أو في زوبعة من الكلمات

مادّة لدفتر المُلاحظات

العنصرية التي ورثها مثقّفون وكتّاب أميركيون عن الإنكليز، أصبحت «حسّاً سليماً» لدى أولئك البيض، وهي لا تزال مستمرّة إلى يومنا هذا

باسم النبريص

حرب الإبادة على غزّة، بمُطلق الجبروت الأميركي، جعلتني أعودُ لاسمين مَحضهما المُثقّفون العرب، كلّ تبجيل، ولا يزالون بفعلون، بحُسن نيّة، دون أن ينتبهوا لما قالا، خارج مدوّنتيهما الأدبية، وهما: والت ويتمان وهيرمان ملفيل. الأول كان عُنصرياً وقحاً دون أدنى مواربة، فقد اعتبر أنّ السُّود أقارب للقرود، ودافع عن العبودية بأجلى معانيها. وفي الحرب ضدّ المكسيك، في منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر، لم يتردّد في وصف المكسيكيّين الأصليّين بـ«المُعتدين الذين استفزّوا أميركا». ولهذا السبب كان للدفاع عن نفسها، والتوسّع لنشر سعادتها على الأمّة المُفترضة المُعتدية، ألف مُبرّر وميزر. وقبل هذا الموقف، كان قد ذهب إلى حدّ الإشادة باستخدام بلاده للأسلحة، مُبرّراً العدوان الإمبريالي على المكسيك بالقول: «لقد حان الوقت لتحقيق العدالة. ولنُظهر أسلحتنا المحمّلة بالعدالة أنّ أميركا، رغم أنها لا تسعى ولا تريد المشاكل، تعرف كيف تُدافع عن نفسها وكيف تتوسّع». أما الثاني، فقال ما هو أسوأ، مثل قسّ مسيحاني لا روائي، وقد تسربل بعباءة المسيح، والمسيح منه ومن فظائع جنسه الأنغلوسكسوني براء. قال: «نحن الأميركيّين هُم الشعب المختار، نحن إسرائيل عصرنا، جئنا لنحمل سفينة الحرّيات إلى العالَم. لقد انتدب الله جنسنا الأبيض، والبشرية تتوقّع منهم ذلك، لأشياء عظيمة. لقد ظللنا لفترة طويلة مُتشكّكين في أنّ المسيح السياسي قد جاء إلى العالَم، لكن بشارته وصلت وهي نحن». ومن الواضح أنّ التفوّق العنصري، يتم التعبير عنه على جميع المستويات، ويمنح مكانة خاصة للتفوّق الأخلاقي الموهوم، وهو ما ستفتخر به الولايات المتّحدة كثيراً. نعم التفوّق الأخلاقي في قتل وإبادة المدن وسرقة الأراضي والغزو والنهب. لقد ورث مؤسّسو الولايات المتّحدة، مع بعض مثقّفيها، هذه العنصرية من الإنكليز، حتى أصبحت «حسّاً سليماً» لدى السكّان البيض في تلك البلاد المنهوبة، وهو شعور عنصري لا يزال مستمراً حتى يومنا هذا. وآخر دليل له هو إفناء غزّة.

■■■

العالَم مادّة لدفتر المُلاحظات. العيش المُثقّف عملٌ للملاحظة الدؤوب. والملاحظة نقدٌ للعالَم: جهدٌ يُمكن تنفيذُه من خلال التحليل النفسي، أو الاستبطان الشخصي، أو التأمُّل، في الداخل والخارج. ومع الوقت والخبرة، يتيسّر للمرء أن يعرف بعض العالَم ويعرف بعض نفسه، أي يُحقّق ما طلبه عظيمان سابقان من محيطهما البشري العرمرم: سقراط ومعرفة النفس، وماركس وتغيير العالَم. وبناءً على ما تقدّم، قد يفهم بعضُنا أنّ الحياة صعبة، لكنّ الفهم المُبكّر لها، هو أيضاً وسيلة لعُبور عتبة الفلسفة، حتى لو اهتززْنا بسبب ذلك. الحياة صعبة، لكنّ الشّعر مُحتال عظيم، ويجدُ في الغالب مدخلاً أو مسرباً للهرب منها، حتى لو لم يبرُع في أعلى وأشدّ اللحظات كثافة.

إنّ العالَم مُتّجه المركز: مُعقّدٌ كارثية الخطوط، ويتم تقديمه أحياناً في دوائر أو في زوبعة من الكلمات.

إن الرأسمالية أمرٌ كارثي من وجهة نظر الطبيعة، بالمقام الأول. لأنّ النمو اللانهائي مُستحيلٌ في عالَم محدود بموارد محدودة. كما أنّه مصدرُ استياء دائم لأولئك الذين لا يرضون أبداً بما في أيديهم، وبما رسمت المُخيّلة. وقد يُفهم أيضاً، أنّ الرأسمالية لو عاشت مئة سنة زيادة، فإنّ كلّ شيء مُهدّد بالخراب: الطبيعة أولاً، ومن ثَم البشر. وعليه، قد يحدث ويتوصّل إلى هذه النتيجة المُزلزلة: الرأسمالية جنازة المستقبل. كلّ صوتٍ رأسمالي جَشِعٌ، هو ابتذال جنائزي.

(شاعر فلسطيني مُقيم في بلجيكا)

> خارج مدوّنتيهما الأدبية فإنّ ويتمان وملفيل مُتسربلان بالعنصرية

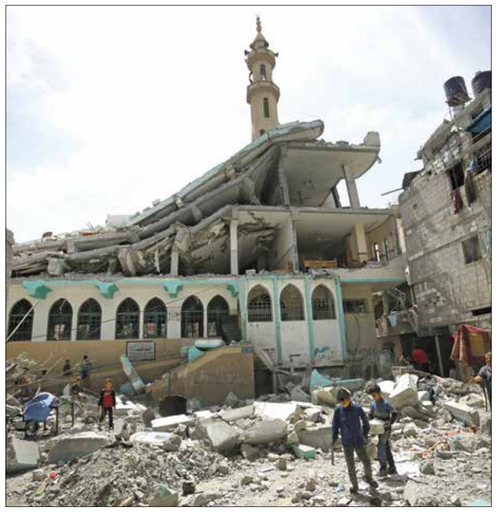
«مسجد القوّتين» بعد أن دمّرته غارة صهيونية مطلع الربيع في دير البلح، 22 نيسان/ إبريل 2024 (Getty)

فعاليات

بدءاً من اليوم الخميس وحتى بعد غدٍ السبت، تُنظّم «منصّة الفنّ المعاصر» في الكويت العاصمة بالتعاون مع السفارة الفلسطينية، تظاهرةً ثقافية بعنوان **أيام فلسطين**، وتتضمّن حفلات توقيع لإصدارات جديدة تتناول القضية الفلسطينية وتاريخها، إلى جانب ندوات فكرية وحواريّات وعرض لأفلام وثائقية.

يعيش العالَم اليوم تجلّيا لحالة من التناقُض بين الموقف الشعبي والموقف السياسي الرسمي، في التعامل مع القضية الفلسطينية. هذا ما تُضيئُه الحلقة الثالثة من **بودكاست القطان** التي تُبثّ عند السابعة من مساء اليوم الخميس عبر قناة المؤسسة على «يوتيوب». من المشاركين في الحلقة الصحافية **لمى غوشة** التي تلقي نظرةً على آليات قمع المحتوى الفلسطيني عالميّا.

للاسبوع الثاني، تتواصل عروضُ العمل المسرحي **كارل ماركس: المَجيء الثاني** للمخرج اللبناني **رالف العسراوي**، على خشبة «مسرح لبنى» في بيروت، حيث يعود شبح الفيلسوف الالماني ليُؤدّي دوره المُمثّل **عامر فيّاض**)، عند الثامنة والنصف من مساء اليوم، ليُحوّم ساخراً فوق واقعٍ ما زالت الراسمالية تُهيمن عليه.

يُنظّم «منتدى تفاكُر» لقاءً افتراضيا حول **الاعتقال السياسي في سورية: التجربة والأدب**، ويُبثّ عبر منصّة «زووم» عند الثامنة بتوقيت دمشق من مساء غدٍ الجمعة، ويُشارك فيه ثلاثة كتّاب سوريين خاضوا تجربة الاعتقال، وهُم: **راتب شعبو** و**مصطفى خليفة** و**محمد برّو**، فضلاً عن الناقد **احمد جاسم الحسين**.